

الثلاثاء 25-12-2007

116- أنواع العقول وتعدد مستويات الوعي

مقدمة لقراءة في كتاب:

أنواع العقول

الطريق إلى فهم الوعي

دانييل دينيت

تمهيد

لا أعرف ما الذي دعى المترجم، - الصديق د. مصطفى فهمي إبراهيم- وهو من أبرع من ترجم العلوم إلى العربية، أن يغير العنوان من **أنواع العقول إلى تطور العقول**، الفرق عندي ليس هينا، وقد سألته في الندوة التي قمت فيها بمناقشة الكتاب، والتي عقدت في مارس 2004 "جمعية الطب النفسي، التطوري والعمل الجماعي"، دار المقطم للصحة النفسية، سألته عن سبب تغيير العنوان، فقال لي إن هذا المعنى (التطور) هو الذي وصله من الكتاب، وأنه أقرب إلى تقبل القارئ العربي!

ولم أوافق.

العنوان باللغة الإنجليزية شديد البساطة والوضوح، ولا لبس فيه **Kinds of minds** فما هو المبرر أن أجعله تطور العقول؟

قد يتبين مغزى احتجاجي من الأسئلة التي سوف أ طرحها على القارئ قبل مناقشة الكتاب، وأثناء المناقشة.

من هذه الأسئلة :

- هل خطر على بالك من قبل - عزيزي القارئ- أن يكون هناك للعقول **أنواع**؟
 - وهل لو كان للعقول **أنواع** فكيف تتخيل أن تكون ؟
 - وما مفهومك عن العقل (وليس بالضرورة تعريفك له) ؟
 - وهل لهذا المفهوم علاقة بما هو "وعي" ؟
 - وهل **تتطور** العقول؟
- العنوان الفرعي لنفس الكتاب هو " نحو فهم الوعي"

حاول أن تجد بنفسك أسئلة تتعلق بما يحضرك حين تسمع كلمة "وعى" شكرا.

دعنى أعرفك بالمؤلف الآن

ولكن دعنى أسألك أيضا - عزيزى القارئ- قبل أن أعرفك عليه :
ما رأيك ؟

من ترى أنه الأرجح بتأليف كتاب يحمل هذا الاسم " أنواع العقول"، هل يكون :

- طبيبا نفسيا،
- أم عالم نفس،
- أم معالجا نفسيا،
- أم أستاذا في الأنثربولوجى
- أم أستاذا في الفلسفة
- أم أستاذا أو طبيبا في المخ والأعصاب؟
- أم فيلسوفا
- أم أستاذا في التشريح أو الفسيولوجيا أو الأنثربولوجيا

المؤلف هو أستاذ في الفلسفة

لعل هذا يذكرنا بكارل ياسرز- صاحب كتاب السيكوباتولوجيا العامة **General Psychopathology** أعرق كتاب في الموضوع منذ 1923 - الذى بدأ طبيبا نفسيا، ثم انتهى أستاذا في الفلسفة

دانييل دينيت - مؤلف الكتاب - هو أستاذ للفلسفة حاليا قسم فلسفة العلوم في لندن (ولم يكن أبدا طبيبا نفسيا أو له علاقة عملية إكلينيكية بالمخ والأعصاب).

وقد كان محاضرا ثم أستاذا مساعدا في الفلسفة جامعة كاليفورنيا

وقد استقبلت - شخصا - هذا الكتاب باعتبار كاتبه فيلسوفا صرفا

وحمدت الله أنه شخصا أقر بذلك (أنظر بعد)

لماذا كل هذا التمهيد وهذه التساؤلات البائدة؟

بصراحة لأننى أخاف أن تستقبل - عزيزى القارئ- الموضوع بغير ما هو؟

نحن : عامة الناس، وكثير من المختصين، نتصور أن هناك موضوعات شديدة التخصص لا يصح أن يكتب فيها (يفتى فيها) إلا أهل الاختصاص، ومن بينها - على ما أعتقد- ما يحس من قريب أو بعيد "موضوع العقول"

أقر بصراحة أنني تبينت أن كثيرا من مرضى يعرفون عن هذا الموضوع "العقول" (بالجمع وليس المفرد) أكثر بكثير مما يعرفه المختصون.

إن هذا الجمع "العقول" يقربنا من الموضوع المثار في هذه اليومية منذ بدأت تقريبا عن "تعدد الذات"، (وما يوازيها من "تعدد المنظومات" وأخيرا بحسب لغة العلم المعرفى العصبى "تعدد حالات العقل" **mental states** وهى الكلمة المرادفة تقريبا لما يسمى في التحليل التفاعلى حالات الذات **Ego states**

الكتاب لا يتصل بهذه القضية مباشرة إلا من منظورى شخصيا كما سيأتى في العرض والمناقشة

"أنا فيلسوف ولست عالما"

من أهم ما وصلنى من الكاتب حتى طمأننى أنه قالها بصريح العبارة "أنا فيلسوف، ولست عالما"، هذا كلامه بالخرف الواحد، أهمية هذه الجملة عندى جعلتني أقرأه على أنه فيلسوف وليس أستاذ فلسفة، وقد فرحت أنه ليس عالما (بالمعنى الذى نفاه غالبا)، وإلا كان اختنق بمنهج أعتقد أنه كان سيحول بينه وبين أن يثرينا بكل ما أثارنا به هكذا:

في آخر سطور الكتاب عاد المؤلف يقول:

"..ولما كان هذا الكتاب لفيلسوف، فإنه ينتهى ، لا بالإجابات ، وإنما ينتهى بنسخ معدلة من الأسئلة نفسها، وهى على نوع أفضل".

المؤلف هنا يطمئننى أيضا على أن ما كنت أقوم به في أبحاثى، وإشرافى على الأبحاث كان صوابا، لكنه بصيغته صياغة أرقى، بأن يجعل نفس الأسئلة معلقة بلا إجابة، ولكن "مصاغة بنسخ معدلة على نحو أفضل"

لا توجد أجوبة حاسمة إلا كدليل على الجهل الحاسم

حتى الأسئلة الدينية حين نضع لها أجوبة يقينية مغلقة، نجنى بها على سعى الوعى الفردى، بل والجمعى، إلى ما بعدها، إلى وجه الله.

يضيف المؤلف أيضا في نهاية كتابه نتيجة أخرى إلى ما خرج به من خلال الجهد قائلا "..." أو على الأقل ، فإنه يمكننا ونحن في استكشافنا المتطور لأنواع العقول، أن نرى بعض المسارات فننتبعها، وبعض الشراك فننتجنبها"

هذا في ذاته جيد أيضا، حتى لو ظلت الأسئلة معلقة بلا إجابة.

الاستعمال الشعبى لكلمة "عقل"، والتمسك الدينى بها:

إذا نحن نظرنا إلى كلمة عقل وكيف نستعملها على المستوى الشعبى، وعلى المستوى الدينى الرسمى التسطيحي، لوجدنا أنفسنا في حاجة إلى أن تعلم من دينيت بعض ما علمنا

في الحديث العادى فيما بيننا نسمع هذه العبارة "... هو ربنا عرفوه بإيه؟ فتأتى الإجابة : "بالعقل؟" ويقفل النقاش على هذه البديهية.

أعتقد أن الحس الشعى لا يقصد العقل الذى يعنيه العالم النحرير الذى يجلس على مكتبه يحسب الأمور بالمنطق، وإنما يقول الحس الشعى هذه الإجابة عادة تكملة لحوار سابق "هوا حد شاف ربنا؟ قال لك لأه،.... قال أمال ربنا عرفوه بإيه؟ قالك بالعقل"، الحس الشعى لا يقصد العقل المنطق السبى الخطى، لكنه فى الأغلب يقصد البديهية اليقظة، والوعى المتلقى.

إننا لا نعرف ربنا بالعقل كما شاع عن ذلك عند العلماء والمناطق.

فى شبابه، وفى فترة الشك الباكر (حول الخامسة عشر)، حاول أحد أصدقائى الأكبر سنا أن يقنعنى بوجود الله سبحانه وتعالى من بعض مقولات علم الكلام، وأخذ يثبت لى البداية وكيف يمكن أن تكون، وأنها إما بالدور أو بالتسلسل (على ما أذكر) .. حتى كاد شكى ينقلب إلى نفى يقينى، لولا أن شيخا أميا طيبا كان يعمل خفيرا حظيرة مواشينا، حين طرحت عليه أسئلتى نفسها بعد أن ختم صلاة العشاء، راح يثبت لى أن الله سبحانه موجود واحد أحد، بان قال لى: " يا ابنى دا هو نفسه (يقصد ربنا) بيقول "قل هو الله أحد"، عايز حاجة أكثر من كده؟

ساعتها هدأت سريرتى، وعرفت فعلا أننى لا أريد حاجة أكثر من "كده"، وشعرت كم يمكن أن يحنى علم مثل علم الكلام على حقيقة الوعى البسيط بحقيقة وجود الله سبحانه،

حين عدت الممكن المستحيل والمستحيل الممكن، فى يومية 16-2007 link أبحث إلى هذه المسألة: كنت أقصد أن عقلنا الحديث أعجز من أن يثبت وجود الله إلا تعسفا وتلفيقا. ليس معنى هذا أن عقلنا البدائى هو الأقدر على إثباته، لكن الذى يستوعب وجود الله سبحانه بالمعنى الحقيقى الحاضر فى الداخل والخارج، هى كل "أنواع" عقولنا مجتمعة معا، فى لحظة، فلحظات، لها أثر باق، قابلة للتجلى بيقين منير، بلا حاجة إلى إثبات عقلى بالمعنى الشائع.

مجرنا هذا الغموض حول كلمة "عقل" و "عقول" إلى مقولة أخرى يفرح بها كثير من المسلمين فرحا سطحيا سريعا، وكأنهم حسموا موقع ديننا من هذه المسألة حين يعلنون فى كل مجال ودون تردد "إن الإسلام هو دين العقل"، وكثير منهم يضيف - علنا أو سرا- إن الإسلام بالذات هو دين العقل، وهات يا استشهاد بالآيات التى وردت فيها كلمة العقل، ويعقلون، ويفكرون، يرددونها بعيدا عن سياقها أحيانا، ومستنديين إلى تفسيرها المكتوب المحدود أحيانا أخرى، وكأنهم بذلك قد اطمأنوا إلى أن ديننا هو الدين الحق لأنه دين العقل (!!)

لو علم هؤلاء الطيبون - على أحسن الفروض- أن المسألة لم تعد بهذه البساطة، وأن ما يسمى عقلا - على الأقل من منطلق ما يستعملون من أجدية - قد تراجع إلى مكانة شديدة التواضع، إذن لتراجعوا كثيرا عن هذا الحماس، الذى أعتقد

أنه هو هو الذى يدفع فريقا آخر إلى ممارسة وترويج تلك البدعة الخطرة التى يسمونها "التفسير العلمى للقرآن"، وكأن المقدس الأول هو ما يسمى العلم (من وجهة نظرهم) وبالتالي فكل ما يقره ما يمكن أن يسمى "العقل العلمى" هو مقدس أيضا (دون التصريح بذلك أو الوعى به) ، ومن ثم إذا اتفق فهمهم أو تفسيرهم للقرآن الكريم مع هذا المقدس (العقل العلمى- مع أنه لا يوجد شئ بهذا الاسم) فهذا يثبت (لهم لا شعوريا) أن القرآن له نفس القدسية - استغفر الله العظيم- ثم قد يضيفون فرحين بأن (للقرآن الكريم) حق السبق. (نؤجل الدخول فى مناقشة ذلك أكثر من ذلك)

إذا كان الله سبحانه وتعالى لا يمكن إثبات وجوده بهذه الجزئية من وسائلنا المعرفية التى أهيئناها للعقل، طالما نحن نتحدث عن "عقل واحد"، فبم يثبت ؟

لا أريد أن أسارع بالرأى، لأنه منذ هذان رد غفيرا العجز إلى الإجابة، وأنا لا أحتاج أن أخوض فى هذه المسألة بالألفاظ، لكن مع خبرتى مؤخرا فى قراءة اتى للمتصوفة، وتاريخ التصوف الذى قدمنا منه بعض المقتطفات، link ثم محاطرتى بقرأة موازية مع ابن قس طبيب نفسى (هو د. إيهاب الخراط) مجتهدين فى استلهام بعض مواقف مولانا "النفرى" عرفت من خلال هذا وذاك كيف أعيد صياغة مثل هذه الأسئلة بشكل يقترب مما أشار إليه دينيت وهو يختتم كتابه، حيث يظل السؤال سؤالا أرقى، فيصبح قادرا على دفع أقوى، وكحد أعلى، مما يمكن أن يمكننا ونحن نواصل الكدح والسعى: لا إلى الإثبات السطحى، ولكنه يمكن أن يمكننا من (كما قال دينيت) : "..... أن نرى بعض المسارات فنتبعها، وبعض الشراك فنتجنبها".

إذن ماذا؟

إذا كان هذا الكتاب لا يتحدث عن العقل بالمعنى الذى يستعمله الحس الشعبى العام، ثم هو لا يتحدث عن العقل بالمعنى الذى يستعمله المفسرون المعجميون السائرون ثبوتا فى الحل ثم هو لا يستعمله لفظ "العقل" بالمعنى الذى يستعمله أطباء المخ والأعصاب، ولا أطباء علم نفس السلوك وما شابه، ولا أطباء الطب النفسى الكيمىائى الأحدث

فبأى معنى يستعمل دينيت كلمة ، "عقل"، ثم يجمعها إلى "عقول" ثم يصنفها إلى "أنواع" فىسمى كتابه أنواع العقول kinds of minds بلا لبس ولا تردد؟

ما ليس هو !

لقد بدأت فى ندوة مناقشة هذا الكتاب بنفى ما قد يتبادر إلى الذهن من مجرد ذكر كلمة "عقل" (وقد أضفت الآن

بندين اثنين) على الوجه التالي:

العقل - منا على الأقل - ليس هو

1. ليس هو ما يرد في تعريف كلمة "عقل" في المعاجم
2. ليس هو القطب الآخر الذى يقع على أقصى الطرف النقيض لما يسمى عاطفة (العقل) < === > (العاطفة)
3. ليس هو ما يستعمل في ما يصح وما لا يصح (بالمنطق الأرسطى مثلا)
4. ليس هو ما نطمئن إليه بعد حل تمرين هندسة بتطبيق نظريات هندسية محكمة، ونحن نتنهد قائلين "وهو المطلوب إثباته"
5. ليس هو ما نستعمله جاهزا ونحن نتحدث عن نتائج تجربة علمية ثبتت صحتها المرة تلو المرة
6. ليس هو ما يقابل ما يقوم به حاسوب مهما بلغت دقته ثم تخرجت من هذا النفي القاطع، فأضفت هذه الجملة بعد كل هذا النفي هكذا

"يمكنك أنت - إن شئت - أن تضيف كلمة "فقط" بعد كل ما ليس هو، فتصبح الجمل المنفية - بعد التعديل - على الوجه التالي :

1. ليس هو "فقط" ما يرد في تعريف كلمة "عقل" في المعاجم
2. ليس هو "فقط" القطب الآخر الذى يقع على أقصى الطرف النقيض لما يسمى عاطفة : (العقل) < === > (العاطفة)
3. ليس هو "فقط" ما يستعمل في ما يصح وما لا يصح (بالمنطق الأرسطى مثلا)
4. ليس هو "فقط" ما نطمئن إليه بعد حل تمرين هندسة بتطبيق نظريات هندسية محكمة، ونحن نتنهد قائلين "وهو المطلوب إثباته"
5. ليس هو "فقط" ما نستعمله جاهزا ونحن نتحدث عن نتائج تجربة علمية ثبتت صحتها المرة تلو المرة
6. ليس هو "فقط" ما يقابل ما يقوم به حاسوب مهما بلغت دقته

العقل والوعى

العقول التى تكلم عنها الكتاب، ترجع إلى ما قبل الإنسان بردح طويل، قبل ظهور ما يسمى "المخ أصلا"، ومن هنا - ربما - حدث الترادف بين ما هو "وعى" (من وجهة نظر الكاتب) وما هو "عقل". إن من أهم الأسباب التى جعلتني أحب هذا الكتاب وكاتبه هو دفاعه الموضوعى عن نظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع لداروين (ووالاس)، جنبا إلى جنب مع شجاعته وهو يقتحم تلك المنطقة التى لا يكون الإنسان إنسانا إلا بها، ألا وهى منطقة الوعى

معظم أعمال المؤلف التى شدتني إليه هى إنجازاته فيما

يتعلق بالتطور (الدارويني خاصة) ومستقبل تطور الإنسان المعرف والبيولوجي، وأيضا إسهاماته في فحص مسألة علاقة الوعي بالعقل، وكل ذلك هو ما لا أتصور أن طبيبا نفسيا يمكن أن يمارس مهنته بما ينبغي كما ينبغي ، دون أن يلزم بها.

كسر وحدتي، جنبا إلى جنب مع تعرية جهلى، جاء من أن هذه الموضوعات هي من أهم ما شغل حياتي طوال نصف قرن على الأقل

ما الحكاية بالضبط؟

كيف همّش الأطباء النفسيون هذا الموضوع المحورى "الوعي" هكذا؟

كيف رفعه السلوكيون من كل كتب علم النفس السلوكى بلا تردد (هو، وموضوع الإرادة غالبا)؟

ماذا يتبقى في الإنسان لتتعرف عليه إذا لم نعرف ماذا نعنى بالوعي، وكيف الإرادة؟

في هذا الكتاب، تحدث دينيت ببساطة وجرأة عن منظومة، ومنظومات، في التركيب الحيوى، هي اقرب ما تكون إلى الوعي كما نعرفه عند الإنسان، لكنه لم يشر تحديدا إلى ما نسميه حاليا "الوعي بالوعي"،

وقد رادف دينيت - تقريبا - بين ما هو وعى، وما هو عقل، وأشار إلى احتمال أن يكون إنكارنا لوجود الوعي (العقل) عند أسلافنا من الأحياء هو أقرب إلى العمل اللاأخلاقى.

- فكيف كان ذلك؟

- وماذا ترتب على ذلك؟

- وما علاقة "أنواع العقول" التي قدمها مجالات العقل **states of mind** التي قال بها مؤخرا علم المعرفة العصبى **cognitive neuroscience** ومجالات الذات **Ego states**؟

وثمة أسئلة أخرى قد لا تحتاج إلى مناقشة قبل الدخول في جوهر موضوع الكتاب، مثل:

1. هل هو كتاب في التطور (تطور العقول كما رأى المترجم، أو تطور الوعي)؟

2. هل هو كتاب في الفلسفة يطرح أسئلة أكثر مما يعرض إجابات؟ يقدم فروضا مثيرة للجدل ثم يعلق الأمر - أمانة- دون أن يحسمها؟

3. هل هو كتاب يبحث في ماهية العلاقة بين الوعي والعقل؟

4. هل هو كتاب في المنهج يقدم منهجا مساعدا نحن أحوج ما نكون إليه؟

5. هل لِمَا عرضه من آراء، وفروض، ونتائج، ورؤى، أهمية عملية تطبيقية سواء في الممارسة الإكلينيكية؟ أو في الحياة العادية

نأمل أن نناقش هذه الاحتمالات دون الوعد بحسم الإجابة كما علمنا

كل ما نرجوه - كما أرجو أن تكون هذه المقدمة قد نبهتنا إليه- هو أن نتحمل **مسئولية السؤال**، مهما تأخرت إجابته دون إلغائه ابتداءً، بالاستغناء عنه، أو بإجابة ليست بلغته؟

هذا ما سوف نحاوله في حلقات قادمة لم نعد قادرين على أن نحدها بشكل حاسم (مثل غيرها من العود)

لكن أرجو أن يكون قارئنا (زائرنا) قد اعتاد مثل ذلك.

وأن يثق - معى - في مصداقية مثلنا الشعبي الجميل الذى يقول :

"طولة العمر تبلغ الأمل"

-Kinds of Minds Towards Understanding of Consciousness

الكتاب المترجم صادر عن "المكتبة 1996 Daniel C. Dennet الأكاديمية" القاهرة 2003

- على فكرة ، أنا أحببته جدا ، ولم أقرأ له غير هذا الكتاب، وإن كنت قد زرت موقعه ووجدته شديد التراء ، ولم أجد فرصة كافية لتغطيته

- وعندى تفرقة واضحة بين أستاذ الفلسفة والفيلسوف

- لا أريد أن أشير إلى ما جاء في بريد/حوار الجمعة حول هذه القضية، وما عرضناه في لعبة "أنا واحد ولا كثير" من متطوعين أسوياء، وسوف نعرض محتويات مجمعة نوعيا لهذا الموضوع وغيره لحصيلة الشهور الأربعة منذ بدأت اليومية في نهاية هذا الشهر

-scientists I am a philosopher not a

- كنت دائما أعتقد وأنا أقوم بأبحاثى أو أشرف على زملائى الأصغر، أن البحث الجيد إذ يبدأ بفرض محدد يصبح جديرا بالتقدير والثناء إذا انتهى بفروض أكثر وغدا، وأوسع رحابة، كنت أفضل ذلك دائما عن مجرد إثبات الفرض أو نفيه،

- من أهم أعمال الكاتب في هذين المجالين ما يلى :

العمل الأول "معاودة المواجهة لمشكلة الوعي"

هل استطعنا أن ننجح في شرح ماهية "الوعي" أم ليس بعد؟

"Facing Backward on the problem of consciousness"

Are we explaining consciousness yet?

Cognition 79 (2001) 221-237

العمل الثانى:

أين أنا من صهوة داروين

In Darwin's Wake, Where m I ?

APA Proceedings The American Philosophical Association.

العمل الثالث (كتابه الأسبق) : عن الوعي أيضا وفلسفة
القصدية

Selected PUBLICATIONS:

Content and Consciousness, 1994

Philosophy of Intentionality

أما أحدث محاضراته (حول نشر هذا الكتاب) فهي محاضرة في
اليونسكو عن

اكتشاف من يمكن أن نكونه !

"Discovering Who We Can Be" presented at UNESCO Milan,
Italy, November 17, 2001

- المؤلف رئيس تحرير مشارك في دورية "علم الأعصاب المعرفي"
Cognitive Neuroscience